الخـــروج
بين الأسطورة والحقيقة

قصــة خــروج بنــي إسـرائيل ومـن معهـم مـن العبـرانيين والكنعـانيين (الآسيويين) من مصر فرعون العبودية إلى الانعتاق والحرية، بين الرؤية القرآنية والرواية التوراتية، بين الواقع وبين الأسطورة والادّعاء، هو ما سيكون محور البحث في هذا الفصل من الكتاب.

سبق وبينت في كتابي السابق (أبٌ هو إبليس)، الفصل الثالث، وتحت عنوان: (هل عبر موسى البحر الأحمر؟)، أن النص المنحول يضع شكوكاً كبيرة حول الرواية برمتها، وبرأيي أيضاً أن عدد الخارجين من مصر مع موسى يبدو عدداً خيالياً وأسطورياً، وفي الواقع لم يتعدَّ عددهم بضعة آلاف! وتوصلتُ إلى نتيجة مفادها أنه لا بد من إعادة البحث في قصة الخروج من كل جوانبها.

تطرق إلى هذا الموضوع عددٌ من الباحثين والمهتمين بالدراسات الكتابية والتاريخية للقصة العبرية، إلا أنه من النادر أن يتطرق إليها أحدٌ مستعيناً بالرؤية القرآنية، ولو على سبيل المعرفة والتقصي لإثراء البحث، وهذا يعود بالأصل للعصبوية والأصولية الغربية ومركزيتها وإصرارها على استبعاد القصة القرآنية التي جاءت بالإسلام كرسالة سماوية توحيدية خاتمة. تلك الرسالة السمحاء التي سلطت الضوء على صحة الرسالات السماوية التي سبقتها، فاتفقت معها في الكثير واختلفت معها في بعض الجوانب الأخرى التي تم التغيير فيها أو تسييسها أو التغيير في تعابيرها من خلال التناقل والترجمة والظروف المختلفة التي مرت فيها.

استحضرت الرواية القرآنية أوجه الاختلاف أو الفهم إلى ساحة النقاش والحوار والمراجعة، بروح من الإخاء والتسامح والمحبة، فلا إلغاء أو إقصاء للآخر، فالكتب السماوية: التوراة والإنجيل والقرآن، وحامِلوها: موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام)، جميعهم يلتقون في مبادئ العدل والمساواة والخير والحق

والأخلاق، حيث بقي هذا التباين ما بين هذه الديانات متعلقاً في حقيقته حول قصص من سبق من الأنبياء والمرسلين وما نسب إليهم، دون نفي الآخر أو التنكر له أو لشريعته السماوية.

كما نرى في بعض كتابات الكتبة والباحثين الغربيين واستبعادهم للرواية القرآنية في الكثير من بحوثهم وأعمالهم وكتاباتهم، ربما يعود ذلك في الأصل للثقافة الغربية وتراثها الأصولي المتعصب، الذي يعتنق مبدأ (ثقافتي ومعتقدي هو الأفضل، وما عداه من الثقافات والمعتقدات الأخرى هي ثقافات وعقائد دونية).

على أي حال سأتطرق لقصة الخروج من جوانب عديدة ومختلفة: توراتية وقرآنية وإنجيلية، مع الاستنارة بما أنجزه الباحثون والمختصون في هذا الشأن. والغاية هنا إثراء هذا البحث والإضاءة على المعرفة والحقيقة مع الإقرار المسبق بأن أي بحث ودراسة موضوعية وجادة لمضمون القصة العبرية سوف يقود إلى معرفة ما شابها من تغيير وتبديل عما جاء به النبي موسى (**صلى الله عليه وسلم**)، مع وجود انتحال وتحريف لا تزال تكشفه تناقضاتها التاريخية وتشير إليه المكتشفات الأثرية الحديثة والبحوث العلمية، ما يجعل من اعتمادها بصيغتها التي هي عليها استغباءً وتطاولاً على العقل البشري والمنطق العلمي والإنساني السليم، لا سيما عندما تنسب الأعمال والممارسات فيها للأوامر الإلهية، ونسبها إلى (كما أمر الرب)، وهذا الأمر الذي نحاول تسليط الضوء عليه من خلال البحث والتقصي داخل الكتب السماوية الأخرى، وفي العهد القديم: (وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَأَثْمَرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمُوا وَكَثُرُوا كَثِيراً جِدّاً وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ)[1].

يمهد القول التوراتي مسبقاً لتقبل عقل المتلقي إلى العدد الهائل الذي سوف يدّعى لاحقاً عن عدد الخارجين من مصر مع موسى (**صلى الله عليه وسلم**)، لا بد هنا من الأخذ بالحسبان قتل الفرعون لذكورهم واستحياء الإناث منهم: (۞فَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعَمْسِيسَ إِلَى سُكُّوتَ نَحْوَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الأَوْلاَدِ. ۞وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضاً مَعَ غَنَمٍ وَبَقَرٍ مَوَاشٍ وَافِرَةٍ جِدّاً)[2].

هذه المبالغة الواردة في القصة قد تطيح بالرواية برمتها!

١- العهد القديم سفر الخروج 1: 7.

٢- العهد القديم سفر الخروج 12: 37-38.

لكن ما الغاية من المبالغة في وصف أعداد الخارجين ومعهم لفيف كبير أيضاً من غير العبرانيين؟ الغاية هنا التغيير في النتائج التي سيترتب عليها الخروج لجماعة مستعبدة مضطهدة، لتتحول هذه الجماعة من مُسخَّرة مُعتدى عليها إلى شعب وأمة تحمل مقومات الوطنية والقومية، حيث سيكون في انتظاره على جبل سيناء إله يبحث عن شعب له ليعطيه أرض ميعاد وشعوبٌ أخرى تكون بانتظاره هناك، ليسخرها الإله يهوه، فيكونون عبيداً لبني إسرائيل.

لم تستطع القصة إخفاء الحقيقة (وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضاً). من هم أولئك اللفيف الكثير غير العبريين؟ هل هم الهكسوس، العموريون، الكنعانيون، عمالقة سيناء، الليبيون، البربر، أم بعض المعارضين المصريين؟

من المعروف أن الأرض التي باركنا فيها، وهو الوصف القرآني لإحدى أطراف مثلث الأرض، التي بارك الله بها للعالمين (من اليمن للحجاز والدلتا وفلسطين وما حولها)، وهي ترجمة للآية القرآنية: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ۝﴾[1] والتي يقابلها في توراة موسى: (فَقَالَ: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ[2] وَأَتَى مِنْ رَبَوَاتِ الْقُدْسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ)[3] هذه الأراضي المباركة كانت على الدوام موطناً للهجرات المشرقية والمغربية. وأصبحت دلتا نهر النيل ملاذاً لجماعات وشعوب كثيرة كانت تعاني، وعلى فترات مختلفة، من عدم الاستقرار والتوطن نتيجة لمناخ الجفاف والقحط والتصحر لمناطق واسعة من الجزيرة العربية وجنوب وشرق البحر المتوسط بعد انحباس الأمطار لفترات طويلة.

أصبحت بذلك مجاري الأنهار ومصباتها من الملاذات الآمنة، التي تعتمد على مياه الأنهار. وكانت دلتا نهر النيل في شمال مصر أهم هذه المناطق التي هاجرت إليها جماعات من الكنعانيين العموريين والعبرانيين، ومنهم يعقوب (صلى الله علبه وسلم) الآرامي اللسان الكنعاني التربية والثقافة مع أبنائه الذين ارتحلوا إلى دلتا النيل بمصر نجاةً من الجفاف والقحط، الذي طال أيضاً شمال أفريقيا. كما كانت هناك هجرات متلاحقة للّيبيين والبربر إلى منطقة الدلتا بين فرعي (دمياط والرشيد) شرقاً وغرباً.

١- القرآن الكريم سورة التين الآيات 1-3.

٢- جبل فاران: هو جبل عرفات في مكة المكرمة. وهي التسمية القديمة له وللحجاز وجنوب سيناء (برية فران).

٣- العهد القديم سفر التثنية 33: 2.

هذا ما قام به أيضاً أجداد النبي إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) في رحلتهم إلى شمال الجزيرة العربية (أوركلدان) العراق، إثرَ الجفاف الشديد الذي أصاب جنوب الجزيرة العربية، حيث كان الموطن الأصلي لأجداد إبراهيم (صلى الله عليه وسلم).

شكل الليبيون والبربر في دلتا النيل وفي مصر جالية كبيرة خلقت طبقة كبيرة من التجار والملاك والموظفين والعسكريين الذين وصلوا إلى مراتب عليا في مصر الفرعونية.

لا علاقة للدعوة والتوحيد بهذه الهجرات التي حمل فيها المهاجرون معتقداتهم وثقافاتهم التي اختلطت بعضها ببعض فتفاعلت وتأثرت وأثرت بمحيطها الجديد، فلا سبيل للادّعاء بأن قصة الخروج تحمل طابعاً تعبدياً أو دينياً على الإطلاق، أو أنها معارضة لنظام تعدد الآلهة الوثني. هذا الادّعاء لا علاقة له كذلك بموسى الذي كان يحمل مبادئ أخناتونية توحيدية معارضة لنظام لا أخلاقي جائر. ودليل ذلك ما جاء في القرآن الكريم ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]، وفي سورة أخرى ﴿وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[2].

حين تتحدث الرواية العبرية في سفر الخروج عمّا خرج معهم من (...غَنَمٍ وَبَقَرٍ مَوَاشٍ وَافِرَةٍ جِدّاً)[3]، فهذا يعني أن المصريين لم يسلبوا العبرانيين ومن معهم ممتلكاتهم وأرزاقهم وهم الأقوياء القادرون وأصحاب الدين الوثني اللاأخلاقي (وهنا توجد الحلقة المفقودة)، بل على العكس من ذلك، ما حصل أن بني إسرائيل الموحدين هم من سلب وسرق المصريين!

سفر الخروج يجعل من الموحدين المضطهدين المسخرين لصوصاً سارقين ومخادعين!

سرقة أواني فضة وذهب وحوائج بالخديعة للجوار من المصريين بتبرير توراتي تكاد الرواية تعتبره أمراً إلهياً: (۞وَأُعْطِي نِعْمَةً لِهَذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. ۞بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَاباً وَتَضَعُونَهَا

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 138.
٢- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 92.
٣- العهد القديم سفر الخروج 12: 38.

عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ»)[1]. القصة هنا تبين أن الرواية تناقض ذاتها بقولها: (وَصَعِدَ مَعَهُمْ ...غَنَمٍ وَبَقَرٍ مَوَاشٍ وَافِرَةٍ جِدّاً)[2]، ما يعد ثروة في ذلك الزمان هذا الذهب وهذه الفضة المسروقة من الكثرة والوفرة، بحيث شكلت حملاً ووزراً عليهم في سيناء عند عبادتهم للعجل الذهبي المصنوع منها في غياب نبيهم موسى، وهو يتلقى هناك الشريعة والوصايا على جبل الطور.

وترد القصة في القرآن الكريم كما يلي: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ۞ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ۞﴾[3].

هناك أيضاً تبرير كاذب على موسى بادّعاء الوزر والشعور بالذنب لسرقة ذهب المصريين ليصنع منه عجلاً ذهبياً، يقال له: (..إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى..)[4]. لم يتعرض بنو إسراءيل وحدهم للتسخير والعبودية على يد الفرعون الجديد الطاغية، بل شاركهم هذا التسخير الآسيويون والمصريون، الذين اتبعوا أخناتون وثورته التوحيدية. والسؤال المهم هو: هل آمن بنو إسراءيل ومن معهم من الآسيويين والأفارقة بديانة الموحد أخناتون وموسى ودعوته؟ وهل ارتحل الجميع في خروج جماعي قارب المليونين من الخارجين مع موسى؟

من سفر الخروج خرج (۞...سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الأَوْلاَدِ. ۞وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضاً...)[5]. وباحتساب العيال والنساء واللفيف غير العبراني قد يصل العدد إلى ما يقرب من المليونين من الخارجين مع موسى. وتأتي الحقيقة الغائبة من القرآن الكريم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ۞ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ۞ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ۞﴾[6]. في سياق الآيتينَ القرآنيتين مشهد لَجَمْعَيْن كل يرى الآخر بعد التوجه شرَقاً، والشرق هنا منطقة (رعمسيس)، حيث سكناهم هناك، وليس البحر الأحمر الذي يقع إلى الجنوب؛ إنه فرع النيل المسمى (بالفرع البلوظي) مصرياً، والمسمى في التوراة

١- العهد القديم سفر الخروج 3: 21-22.
٢- العهد القديم سفر الخروج 12: 38.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآية 88.
٤- القرآن الكريم سورة طه الآيات 87-88.
٥- العهد القديم سفر الخروج 12: 37-38.
٦- القرآن الكريم سورة الشعراء الآيات 60-62.

(نهر الشيحور)، وحيث تتشكل هنا بحيرة اليم الذي تخلفه موجات المد والجذر المختلطة مع مياه البحر المتوسط. وحيث تتشكل هنا بحيرة المنزلة، وجنوب هذه البحيرة وفي سبخاتها المتحركة جرى العبور، وهناك غرق فرعون وجنوده، وليس في البحر الأحمر كما تدّعي الرواية التوراتية. وهذا ما تخبرنا به الآية القرآنية الكريمة ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا[1] فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۝ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝﴾[2]. نلاحظ عبارة ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، حالة من المد والجزر تشكل (يماً)، وهذا ما أمر الله به أم موسى: أن ألقيه باليم يقذفه اليم بالساحل، وسنلاحظ أيضاً عبارة: ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾. لم تقل الآية غرقاً!

تذكر الآية الكريمة ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى..﴾[3]. تظهر الآية بجلاء ووضوح عقم الادّعاء التوراتي المبالغَ في أعداد الخارجين من مصر مع موسى ﴿..قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[4]. وعبارة (أصحاب) ترمز لغوياً إلى العدد القليل من الكثير النسبيَ من (قوم موسى) الذين اتبعوا موسى منهم وخرج معه من مصر، وليس الخارجين هم جميع بني إسراءيل. فعندما نقول (أصحاب المسيح)؛ أي تلامذته ومن اتبعه من بني إسراءيل وغيرهم من الوثنيين. وعندما نقول (محمد وصحبه)، فنشير بذلك إلى العدد القليل الذي اتبعه من قومه من قريش، ونقوم بالثناء على أتباعه عندما نقول الصلاة على محمد وعلى آله وصحبه، استثناءً للمشركين من قومه. ونقول (أصحاب الكهف) مثلاً، فهذا القول القرآني يدل على الذين اتبعوا وخرجوا مع موسى إلى سيناء من الباقين في مصر من العبرانيين والآسيويين، والذين ربما كانوا يخفون إيمانهم، كما بعض المصريين من آل فرعون، حسب ما ذكره القرآن الكريم، إضافةً إلى الليبيين والبربر الذين سكنوا دلتا النيل الغربية، ولعل دليل ذلك الآية القرآنية التالية:

١- ﴿..فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا..﴾: أي أسلك بهم طريقاً في السبخة، فالضرب هنا مماثل للقول لما ورد في سورة المَزمل الآية 20 ﴿..يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ..﴾، وليس المعنى (اضرب بعصاك).

٢- القرآن الكريم سورة طه الآيات 77-78.

٣- القرآن الكريم سورة الشعراء الآية 61.

٤- القرآن الكريم سورة الشعراء الآية 61.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

ويأتي التأكيد مرة أخرى في سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۞ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۞ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞﴾[2]، وتثبيت إلهي آخر من سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ۞ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۞﴾[3]. أشير هنا لقول فرعون في الآية ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: يلاحظ القارئ في الآيات السابقة عبارات مهمة جداً: ﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾. والمقصود هنا فرعي النيل: الدلتا الشرقية والغربية، وبالدليلَ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي لم يتم خروجهم جميعاً بعد غرق فرعون وقومه. و ﴿أَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾: وهم قوم غير قوم بني إسراءيل أيضاً (مصريون ليبيون بربر موحدون)، نلاحظ ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾، ووراثة الأرض التي باركنا فيها (دلتا النيل) حيث الموطن ومنه كان الخروج. وملاحظة مهمة تدل على صحة تفسير الآية (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى) قول فرعون في الآية الأخرى من سورة الشعراء ما قاله فرعون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞﴾، والله أعلم.

حاول المدونون وَأحبارهم السياسيون تغييب الحقائق الموضوعية لقصة الخروج بالمبالغة في أعداد الخارجين من مصر مع موسى إلى سيناء، بهدف إعطاء الرواية بعداً توحيدياً، وقومياً سياسياً، وعرقياً في آن واحد، لوصف شعب مؤمن اعتنق ديانة موسى التوحيدية، فتعرض للعبودية والسخرة والاضطهاد المصري، مما اضطره للهجرة إلى مناطق أخرى يستطيع فيها ممارسة ديانته وطقوسه بحرّية بعيداً عن اضطهاد النظام الوثني المصري. ولما كان من المستحيل ممارسته في مصر، فإنه لا بد من وطن لهذه الممارسة والعبادة بعد

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 137.
٢- القرآن الكريم سورة الشعراء الآيات 52-59.
٣- القرآن الكريم سورة الدخان الآيات 25-29.

تحرير وتطهير الأرض الجديدة من الوثنيين الكفرة، ولا مفر لهم من إبادة وسلب واستعباد (الشعوب الكافرة) غير الموحدة، حتى لا تتكرر العبودية مرة أخرى، رغم إقرارهم ضمن توراتهم بعبادتهم للعجل ولبعل وعشتروت وملكوم وإله المدينيين ويهوه، وآلهة محلية شعبية أخرى، فهم ذنبهم مغفور!

مع كل المعجزات والرؤى التي حققها لهم موسى (صلى الله عليه وسلم)، والتي لم تثبت من إيمانهم ويقينهم، بخلاف غيرهم من الشعوب الأخرى، التي لم تشهد معجزة موسى ليطلبوا من نبيهم أن يريهم الله جهراً!

لم تكن طموحاتهم ومراميهم اعتناق التوحيد ونبذ ديانات تعدد الآلهة، إنما العمل على تشكيل نواة شعبٍ وإيجاد وطن وكيان سياسي على غرار الكيان المصري الراسخ، حتى لو تحقق ذلك لهم بواسطة أرباب وديانات أخرى وآلهة وثنية متعددة. وكما يقال: (الثورة تأكل أبناءها)، فقد كان النبي موسى أول ضحايا ممارسات العبرانية البدائية. وتشير آيات القرآن الكريم إلى ذلك بوضوح، وتعبر عن مطالبهم التعجيزية الاستكبارية، وعن إيذائهم لموسى وتذمرهم وخروجهم على الوصايا العشر الإلهية، والعبادات التي فرضت عليهم بموجب الشريعة، كما تذكر سورة النساء: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً ۞ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞﴾[1].

للتفريق بين أعمالهم وكفرهم وبين رسالة النبي موسى وإيذائهم له وعدم اتباع دعوته وتوحيده لله، تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾[2]. ثبت لموسى يقيناً مجاراتهم وانصياعهم المؤقت له، وعلم يقيناً ما يبيتون ويكنون في أعماق نفوسهم، فاشتكاهم لربه ووصفهم بأنهم (...قُسَاةَ الرِّقَابِ...)[3].

١- القرآن الكريم سورة النساء الآيات 153-155.
٢ - القرآن الكريم سورة الأحزاب الآية 69.
٣- العهد الجديد سفر أعمال الرسل 7: 51.

عبر عن ذلك سيغموند فرويد. ومن خلال قراءة للباحث يان أسمان في كتابه التمييز الموسوي يصف ذلك بالقول: (ويرى فرويد هذه الآثار في العنف المميت، وفي نية القتل المكشوفة التي شعر بها موسى عدة مرات). ويقول أيضاً: (ويستنتج فرويد من هذه الآثار أن اليهود قتلوا موسى لأنهم لم يتحملوا المطالب العالية التي وضعها دينه المجرد (السامي) ثم الالتزام بها طوال الحياة، كما أدى التقدم في الروحية وما يرتبط به من الشعور بالتفوق إلى ردود فعل عنيفة. كان موسى الضحية الأولى لذلك، وعلى هذا فإن اليهود الذين قتلوه هم أول المعادين (للسامية).

اعتبر فرويد كما هو معروف (موسى) من أنصار أخناتون. وكان قد هاجر بعد موت أخناتون مع اليهود المستوطنين في الدلتا إلى فلسطين، ونشر بينهم الدين التوحيدي. إلا أن اليهود[1] لم يكونوا على استعداد لتحمل المطالب العالية، أو بالأحرى لتحمل روحية التوحيد المجردة، لذلك قتلوا موسى وكتبوا بعد ذلك هذا العمل (ويقصد كتبوا التوراة)[2]. وكان هذا تجربة نفسية لازمة، لأنه أدى إلى تذكر المكبوت لقتل الأب الأصل الذي يعود لبدايات عرقية[3].

ويعني قتل موسى (إعادة يقظة التذكر الذي كان منسياً لحد الآن)، وذلك بإعادة واقعية هذا الحادث الذي يتمثل بقتل موسى. وأدت توحيدية موسى إلى إعادة مجيء الأب؛ وقتل موسى إلى إعادة قتل الأب الأصل)[4].

ينسجم ويتطابق قول العالم النمساوي اليهودي فرويد مع الاستنتاجات المنطقية التي ذكرتها، ويدخل في سياق الآيات القرآنية التي تشير إلى قتلهم للأنبياء بغير حق. ولا بد من الإشارة هنا وباهتمام بالغ وتدقيق مع هذا التحليل (قتل الأب الأصل)، بحيث تفهم أن موسى (صلى الله عليه وسلم) يمثل الأب للديانة الموسوية التوحيدية الأولى، فلا بد من قتله، لأن الديانة الوثنية القديمة

١- يعتبر فرويد اليهودية أصلاً عرقياً، وهو ما لا نتفق معه عليه كون اليهودية ديانة والعبرانية عبارة عن عرقية؛ فالدين ليس عرقاً.

٢- إشارة فرويد (لذلك قتلوا موسى وكتبوا بعد ذلك هذا العمل) إشارة إلى أنهم كتبوا العهد القديم بعد موت موسى بما يتوافق وأهدافهم. وهي إشارة من فرويد إلى أن التوراة التي بين أيدينا ليست توراة موسى ولا كلمة الله.

٣- قول فرويد (يعود لبدايات عرقية) قد يكون نسبة العبريين إلى قابيل قاتل أخيه حسداً منه، وهو قول ورد على لسان السيد المسيح (عليه السلام) تلميحاً في العهد الجديد. إنجيل متى 23: 29-36.

٤ - يان أسمان: التمييز الموسوي ص 122-123.

اعتنقت مبدأ (قتل الإله ذبيحة تؤكل ويشرب دمها)، فيتجسد الإله (الطوطم) في أجساد آكليه وعابديه ومعتنقيه. هذا المعتقد مورس في الرومانية والإغريقية والكنعانية، حتى إن الهنود الحمر مارسوه في قارة أمريكا. فقتل الأب الأول موسى، كأول أب بعد الخروج من العبودية، يماثل تماماً (قتلهم للمسيح) الأب الأول للمسيحية بعد اليهودية! فصلب المسيح كان مطلوباً، وبغض النظر عن محاكمته أو اتهامه بالتجديف (الكذب)، تماماً كما اتهم موسى!

هذا الفعل الذي أسماه فرويد (المكبوت الأبوي)، ويشير أسمان إلى (همجية الأصل) تلميحاً في إشارة للأطماع العبرانية وهمجيتها وممارساتها قبل ظهور إبراهيم الخليل إلى الوجود بأزمان طويلة. وربما ألمح فرويد بعبارة (التذكر المكبوت لتقتل الأصل) إلى الأب الأول، والذي نسبه إلى (بدايات عرقية)، متفقاً في ذلك تماماً مع السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) في الإنجيل بهذا الصدد، وخطابه الموجه للعبريين اليهود وأحبارهم وكتبتهم بقوله الإنجيلي المقدس: (۞وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تَبْنُونَ قُبُورَ الأَنْبِيَاءِ وَتُزَيِّنُونَ مَدَافِنَ الصِّدِّيقِينَ ۞وَتَقُولُونَ: لَوْ كُنَّا فِي أَيَّامِ آبَائِنَا لَمَا شَارَكْنَاهُمْ فِي دَمِ الأَنْبِيَاءِ! ۞فَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ قَتَلَةِ الأَنْبِيَاءِ. ۞فَامْلأُوا أَنْتُمْ مِكْيَالَ آبَائِكُمْ. ۞أَيُّهَا الْحَيَّاتُ أَوْلاَدَ الأَفَاعِي كَيْفَ تَهْرُبُونَ مِنْ دَيْنُونَةِ جَهَنَّمَ؟ ۞لِذَلِكَ هَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَنْبِيَاءَ وَحُكَمَاءَ وَكَتَبَةً فَمِنْهُمْ تَقْتُلُونَ وَتَصْلِبُونَ وَمِنْهُمْ تَجْلِدُونَ فِي مَجَامِعِكُمْ وَتَطْرُدُونَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ ۞لِكَيْ يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ كُلُّ دَمٍ زَكِيٍّ سُفِكَ عَلَى الأَرْضِ مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَّا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَيْنَ الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ. ۞اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذَا كُلَّهُ يَأْتِي عَلَى هَذَا الْجِيلِ!)[1].

فقول السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) (مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ) يتوافق مع التحليل القائل (بدايات عرقية)، وتؤكده بنسب أعمال القتل والصلب والجلد والطرد من قبل العبرانيين إلى دم هابيل الصديق، فنسبهم إلى (همجية الأصل) إلى قابيل قاتل أخيه غيلةً وحسداً أو يكاد ينسبهم إليه! وعبارة (إِنَّ هَذَا كُلَّهُ يَأْتِي عَلَى هَذَا الْجِيلِ!) إشارة للعقاب الإلهي القادم بتدمير الهيكل والشتات الموعود، بمعنى العودة إلى البدايات وتفعيل الله للعهد الجديد على يد عيسى المسيح بن مريم (صلى الله عليه وسلم).

١- العهد الجديد إنجيل متى 23: 29-36.

فقتل الرسول موسى (صلى الله عليه وسلم) يعني قتل رسالته. وهذا الأمر لم يقتصر على النبي موسى (صلى الله عليه وسلم)، بل طال المسيح أيضاً. إن قتل وصلب المسيح عيسى (صلى الله عليه وسلم) إنما يعني قتل رسالته. ومحاولتهم قتل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم مراراً إنما يعني عدم قبولهم بالديانات التوحيدية الثلاث. وتنص توراة موسى صراحةً على إخبارٍ وبشرى بالأنبياء عيسى ومحمد (عليهم السلام). وكان أحبارهم وكهنتهم يعرفونها جيداً على الرغم من تحريفهم لها. فقد جاء في إنجيل يوحنا سؤالهم للنبي يحيى (صلى الله عليه وسلم) (يوحنا) عن القادم، هل هو المسيح؟ هل هو إيليا؟ وهي بشارة للتوراة بمحمد (صلى الله عليه وسلم رسولاً بعد الرسول عيسى (صلى الله عليه وسلم) مكملاً، وقد حرفها علماء اليهود لتصبح إيلياء بدل أحمد. وقد جاء في الإنجيل: (۞وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» ۞فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ. ۞فَسَأَلُوهُ: «إِذاً مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟» فَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا». «أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟» فَأَجَابَ: «لاَ». ۞فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ لِنُعْطِيَ جَوَاباً لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟» ۞قَالَ: «أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ». ۞وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ)[1].

يعلق أسمان على ما جاء به فرويد بقوله: (مع الرسالة التوحيدية لموسى المصري، ظهر دين الأب بحقوقه الصارمة للسمو ومعاييره عن الطهارة والعدالة، على هيئة هيكل متغير من اللاوعي ثانية، وقتل موسى كان حالة لماضٍ معمول به وغير متذكر انطمر على شكل تجارب نفسية للروح اليهودية، وظهر بعد عدة قرون من الكمون في رسالات الأنبياء التوحيدية على شكل «عودة المكبوت»)[2]، ويقول أيضاً: (ومن الطبيعي ألا تعتبر الديانات التوحيدية (اليهودية والمسيحية والإسلام) نفسها أديان ثانوية أو أديان مضادة والتوحيد في نظرهم هو

١- العهد الجديد إنجيل يوحنا 1: 19-24.

٢- من كتاب فرويد TOTEN UND TABU CT912.

الدين التوحيدي الأصيل. وإن مجيء موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) كان من أجل الرجوع إلى الحقيقة التوحيدية التي كانت مغطاة من الضالّين، لكن الغريب في الأمر هو تأكيد الدقة التي تصور فيها أسطورة الخروج من مصر، والانتقال من دين أولي إلى دين ثانوي، وبهذا الانتقال الذي تسميه التقاليد اليهودية والمسيحية (ما قبل القانون) إلى ما تحت (سيطرة القانون) تغيرت فيه الحالة الكلية للدين، حيث استند الدين هنا إلى قاعدة معيارية صارمة (القوانين)، وحدد نفسه بدقة أمام الآخرين. (وكانت مصر وكنعان) الرمزين اللذين اتّخذا لنفسيهما (إلهاً شعبياً). ولم يعد الدين من منظوره الداخلي للإنارة الذاتية (التوراتية) (ويقصد الكتابية) حالات سابقة، إنما خلق تجديداً جوهرياً. وأنا أفهم مسألة الخروج وسيناء كونها مسألة الصيغة القصية لهذا التحول من الدين الأول إلى الدين الثانوي، نحو حالة تجمع أكثر وعياً وثقافةً والتزاماً)[1].

أتفق مع أسمان في أن اليهودية والمسيحية والإسلام اعتبرت نفسها أدياناً مضادة في مواجهة نظام تعدد الآلهة، وجمعت القواسم المشتركة بالإيمان بالله الواحد لا إله غيره. وسأتفق مع أسمان أيضاً في أن (الكتاب المقدس) يعتبر الديانات والمذاهب التي سبقت اليهودية والمسيحية ديانات (ما قبل القانون)؛ وبعبارة أخرى قبل الوصايا العشر. وفي هذا تمايز موسوي ومسيحي في آن واحد، لا سيما حين يضع (الكتاب المقدس) المصريين والكنعانيين، وكذلك البابليين، كأعداء مركزيين للتوحيدية، ويعتبرهما مصدر الوثنية. وفي هذا تجنٍّ على الإغريقية والرومانية اللتين تعتبران من أمهات اعتناق الوثنية في حوض المتوسط من حيث الترتيب الزمني، ويصفهما؛ أي مصر وكنعان، ولتبنيهما الآلهة الشعبية المتعددة بديانات ما (قبل القانون) أي الوصايا العشر.

من الإجحاف والتجني أن يصف الكتاب المقدس مصر وكنعان بالمركزيتين في الاعتناق الوثني دون الإغريق والرومان، وبصفتهما أول من تبنى التعددية الإلهية قبل ديانة موسى وديانة الكنعانيين بأكثر من ألف عام، ناهيك عن الهنود والفرس والبابليين والسومريين.

فالرومان بأسرهم القديس بولس الرسول وجلبه إلى روما، والذي أُخِذت المسيحية الشرقية أسيرة معه، إنما توخوا من ذلك الفصل التوجه بالمسيحية الحقة إلى غايات وأهداف تخدم مصالحهم وعقائدهم وحملاتهم العسكرية الإمبراطورية،

١- يان أسمان - التمييز الموسوي ص 146- عن ثيوسندر ماير وكتابه (الدين). بتصرف.

ما يجعل من المسيحية موجة جديدة يتم ركوبها للسيطرة على أوروبا الوثنية المتخلفة حينها أيضاً، فالرومانية هي أول من أدخل العادات والتقاليد الوثنية التي كانت تخص ثقافتها إلى المسيحية بعد ظهورها لتغريبها في محاولة لشطب عادات وتقاليد المسيحية المصرية (القبطية الشرقية) الأصيلة المنبع الحقيقي للمسيحية. هذه الممارسات عُبِّرَ عنها بشكل لافت داخل الكتاب المقدس، وفي تفسيرات بعض كهنة الكنيسة الغربية.

ما جاء به أسمان حول ديانات (ما قبل القانون) يعتبر نقداً وقولاً صحيحاً إيجابياً، لكنه ليس كاملاً أو ناجزاً، فالإسلام بعدالته ومساواته وتوحيده للإله الواحد لم يعتبر الأديان التي سبقته (التوحيدية) (أديان ما قبل القانون)[1]، كما اليهودية والمسيحية اللتان لا تزالا تتنكران للإسلام (كديانة سماوية بعد وضمن القانون). هذا يشير إلى عصبوية لافتة لا تتقبل الآخر، على الرغم من دوره الكبير في ولادة حضارات أوروبا التي اعتبر كتّابها وباحثوها الوجدانيين الثقافة العربية والإسلامية ذات الأصول الإسلامية والمسيحية المشرقية (الولادة والقابلة) لحضارة أوروبا التي هذبها وقدم أسس معارفها (ابن رشد) وابن خلدون، وغيرهم الكثير، خلال عصور الظلمات التي كانت فيها الشعوب الأوروبية أسيرة المفاهيم الكهنوتية الجاهلة والمتسلطة على شعوبها المتناحرة فيما بينها على الملكية والسلطات الإقطاعية والكنسية.

وأرى أيضاً أنه من العصبوية التنكر للقيم والمبادئ الأخلاقية والنظم والقوانين التي أرستها الديانة المصرية والثقافة الفرعونية التي استقى منها كتبة القصة العبرية معظم معتقداتهم، لا سيما (كتاب الأموات) المصري، الذي يفوق ما جاءت به الوصايا العشر (القانون) تقدماً وثورية وإنسانية، وأُذكر هنا بشريعة حمورابي الفراتية البابلية التي أرست دعائم أول قانون للبشرية.

يقول الباحث أندريه نايتون في كتابه المترجم (الأصول الوثنية في المسيحية): (أما أشهر آلهة عُبِدت في مصر فهي أوزيريس، إيزيس، حورس. وهناك ثلاثية هيأت الطريق لتثليث المسيحي اللاحق، هو الإله بتاح، وكلمته - توت، وروحه القدس - حورس. وهذا التثليث المصري قديم جداً، وهو الذي عبّد طريق الهرمسية السكندرية المؤلفة من العقل الأكبر أولاً، ثم الكلمة الخلاقة ثانياً، ثم روح القدس ثالثاً. وكان الأفلاطونيون قد طوروا هذه النظريات الخاصة بالتثليث، وربما كان هذا ما دفع القديس سيريل المقدسي إلى

١- راجع الوصايا العشر، وبشكل أكثر وضوحاً وكمالاً في سورتي الإسراء والأنعام القرآنيتين.

أن يكتب في القرن الرابع أن فلاسفة اليونان كانوا يؤمنون بالتثليث المقدس، وإنهم يقولون أن الطبائع الثلاث ممتدة من دون واسطة). ويقول: (وأحد الشعانين هو مقدمة لاحتفال المسيحيين بـ (موت المسيح وآلامه). وإن عيد الفصح الذي يحتفل به في 25 آذار/مارس اختير موعده ليتماشى مع يوم الاعتدال الشتائي في تقويم جوليان كما يذكر البحاثة الإنكليزي جيمس فرايزر. إذاً، فإن الاختيار للتاريخ الخامس والعشرين من آذار للاحتفال بعيد الفصح كان الأصل محاولة للتوفيق بين الشعائر الوثنية وبين الإيمان المسيحي. والكنيسة تحتفل بـ (موت المسيح وقيامته) بطريقة مشابهة جداً لتلك التي كانت الوثنية تحتفل فيها بموت الإله أدونيس[1] وبعثه)[2].

فيما يتعلق بنظرية فرويد حول مقتل النبي موسى على يد العبرانيين من بني إسرائيل تؤكدها الروايتين الكتابيتين (التوراة والقرآن معاً).

جاء في العهد القديم على لسان النبي هوشع بعد أكثر من خمسمئة عام على وفاة النبي موسى (**صلى الله علبه وسلم**): (إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً وَمَعْرِفَةَ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ مُحْرَقَاتٍ. وَلَكِنَّهُمْ كَآدَمَ تَعَدَّوُا الْعَهْدَ. هُنَاكَ غَدَرُوا بِي. جِلْعَادُ قَرْيَةُ فَاعِلِي الإِثْمِ مَدُوسَةٌ بِالدَّمِ)[3]. ويأتي عصر النبي هوشع بعد عصري إشعيا وإرميا. ويشير بقوله إلى الغدر ونقض العهد إلى الجبل والسهل الذي يطل على قبالة فلسطين من جهة نهر الأردن الشرقية (جلعاد)، حيث يدعي توراتياً أن موسى مات هناك ودفنه الرب ولم يعرف أحد قبره!

أشار علماء الشريعة والفقه الإسلامي إلى جرائم اليهود بحق الأنبياء والقديسين والرسل، وقد أكون أوائل الذين يؤكدون قتل موسى على يد بني إسراءيل، وبالاستناد إلى آيات القرآن من سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ

١- أدونيس: أحد آلهة الإغريق؛ يموت ثم يبعث من جديد.
٢- أندريه نايتون (الأصول الوثنية في المسيحية) ص 44-45، 55 بتصرف.
٣- العهد القديم سفر هوشع 6: 6-8.

إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

نلاحظ في هذه الآية من ذكر للذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، وقتلهم للأنبياء بغير حق، فالقول (فلم قتلتموهم) بالجمع، هو قول إلهي مقصود به الرسولين

موسى وعيسى (عليهم السلام) بتكذيبهم ثم قتلهم، فالآية الكريمة التالية موجهة للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[2]، فالمقصود بهذه الآية الأنبياء الثلاثة موسى وداود وعيسى (عليهم السلام). وقد لعن الذين كفروا من بني إسراءيل على لسان داود وعيسى، والبينات أتى بها النبيان (موسى وعيسى) (عليهم السلام)، وهي الآيات والمعجزات الواضحة الصريحة. والآية الكريمة تحاكي دعواهم ونواياهم وأفعالهم بالقول: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وتماشياً مع دعواهم الواردة في سورة النساء ﴿..وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً۞ بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً۞﴾[3]. وأقول: وسواءً تم الرفع بالروح قبل الصلب أو بعث الروح والقيامة في اليوم الثالث، فإن جريمة القتل أو الصلب قد جاءت للنبيين موسى وعيسى (عليهما السلام) على يد نفر من بني إسراءيل طبقاً للآيات الواردة، والله أعلم.

أتابع طريق الخروج دون تفاصيل الدخول في العبور وجبل سيناء وصولاً لمحطة متقدمة ومهمة تقع ما بين سيناء وفلسطين (عين قديس) وتوراتياً (قادش برنيع). الشكل (1).

إنها المحطة التالية للتيه التي قدموا إليها قبل (عصيون جابر) في برية فاران (أرض الحجاز)، وتقع بالقرب من العقبة الحالية والممتدة إلى الأرض التي باركنا فيها (فاران). تم هذا الترحال بعد إظهار الكثير من المعجزات على يد موسى (صلى الله عليه وسلم)، وصولاً للعصيان في السبت في ساحل العقبة (عصيون جابر)، وقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي

١- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 183.
٢ - القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 184.
٣- القرآن الكريم سورة النساء الآيات 157-158.

كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ[1] يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[2].

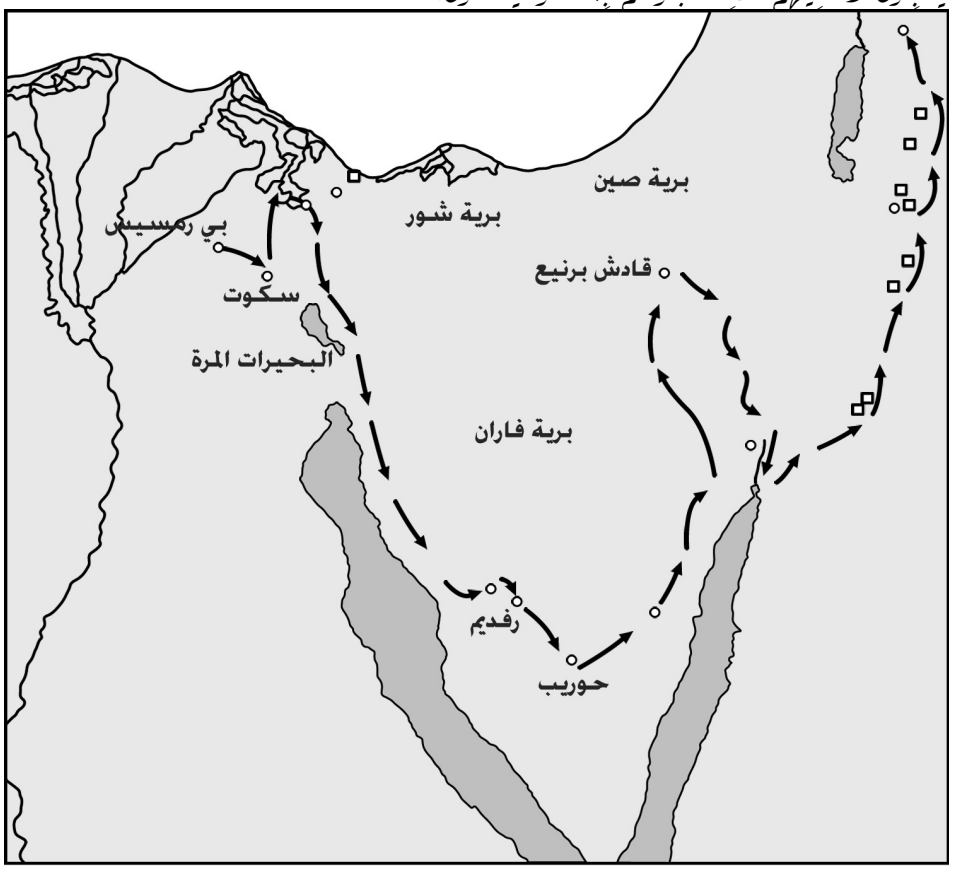

الشكل 1: طريق الخروج من مصر. الطريق الذي يفترض أن يكون أصحاب موسى قد اتبعوه، بخلاف ادّعاء الرواية التوراتية من عبور للبحر الأحمر. وتظهر محطتهم الأولى التي أمرهم الله بسكناها (عين قادس) (قادش برنيع)، وهي مناطق سكنى العرب المدينيين، ما بين سيناء وفلسطين، وتمتد حتى جنوب العقبة والتيماء.

أمر الله بني إسراءيل بسكنى واحة قديس في أرض المدينيين الذين استقبلوا موسى، وكانت تعبد هناك آلهة شعبية، ومنها (يهوه) إله البراكين والظلام، الخاص بطبيعة منطقة البراكين وجبال البحر الأحمر وبرية فاران، وهو إله لا يظهر إلا ليلاً. في كل بلدة وقرية كان هناك معبد أو هيكل للعبادة. ويصف القرآن الكريم هذه الحادثة وصفاً دقيقاً في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا

١- حيتانهم تعني أسماكهم.
٢- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 163.

هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَادْخُلُوا۟ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝)[1][2]

الأمر الإلهي: (اسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ؛ ادْخُلُوا۟ الْبَابَ سُجَّدًا) هو أمرهم الله بسكنى عين قادس وبدخولهم لمعبدها ساجدين لإله موسى، ويغفر الله خطيئاتهم. يلاحظ هنا القول خطيئاتكم وليس خطاياكم، كما سيأتي في سورة البقرة (خطاياكم)، فعصوا ربهم وذهبوا وراء آلهة أخرى (ليس بصيغة الجمع التام) (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ)، وهذا يفسر وجود موسى وهارون ويوشع ومن اتبع إيمان موسى وبقي على عهده وميثاقه.

والظلم هنا هو ظلم النفس بعبوديتها لغير الله الواحد الخالق والخروج عن وصية (لا تتخذ إلهاً غيري)، وعبارة (..بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ) من سورة البقرة الآية 59. والمقصود بالفسوق هنا رفض أوامر الله وعدم طاعته كما كان الحال مع إبليس (..فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ..)[3] أي رفض أوامر الرب إليه.

يلفت الأستاذ الباحث صلاح الدين الكلاس النظر في كتابه (القصص الحق موسى (صلى الله عليه وسلم)، إلى المقاصد الإلهية في عملية التشابه والتكرار الواردة في القرآن الكريم، بشرح للفارق بين الزمان والمكان وأسباب النزول والمرحلة التاريخية التي واكبت هذا التنزيل الإلهي. هذا التفسير قائم على منهج تفسير القرآن في منهج القرآن، وأنقله بتصرف: (لم يرد ذكر القرية في سورة البقرة (والمقصود الفارق بين اسكنوا هذه القرية في سورة الأعراف وأدخلوا هذه القرية في سورة البقرة) إلا بعد ذكر ثلاثة حوادث في سورة الأعراف، في قوله تعالى

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآيات 161-162.

٢- الانتباه إلى الفارق بين سورة البقرة والأعراف بالمقارنة لكل ما تحته خط لملاحظة الفروق الكبيرة ما بينها والتي توضح الاختلاف في الزمان والمكان والغاية الإلهية للنزول بإيضاح الفارق بين قادس والقدس.

٣- القرآن الكريم سورة الكهف الآية 50.

(1)- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ..﴾[1]

(2)- ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

(3)- التذكير بما أخذه رب العالمين من بني آدم ﴿..أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[3].

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ۞ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ۞﴾[4].

ونحن لن نكتفي بأدلة السياقات القرآنية في مقابلات التشابه لإثبات أقدمية الأمر الإلهي الموجه إلى بني إسراءيل بسكنى القرية على القضاء الإلهي بدخولهم قرية أخرى، وهي بيت المقدس، إنما نقدم للقارئ الكريم لأول مرة مقابلات التشابه لم يسبقنا أحد إليها من قبل نقدم من خلالها الأدلة على أن القرية المذكورة في الأعراف هي غير القرية المذكورة في البقرة. ولعل ما يرد في الشكل الرمزي الإيضاحي التالي ما يضع النقاط فوق حروفها هو الدليل الأول:

تشابه {
سورة الأعراف الآية 161 ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ..﴾
سورة البقرة الآية 58 ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ..﴾
}

إن من يستقرئ آيات الله التي تتحدث عن القول الإلهي يدرك أن التعبير القرآني (قلنا) هو قضاء إلهي نافذ، فالله تعالى قضى أن يدخل بنو إسراءيل القرية المشار إليها في الآية 58 من سورة البقرة. وقد تبين أن المقصود بهذه القرية الأرض المقدسة التي كتب الله تعالى لبني إسراءيل دخولها فحسب، ولم يكتب لهم سكناها أبداً، وقال الله تعالى على لسان موسى (صلى الله عليه وسلم): ﴿يَا

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 163.
٢- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 171.
٣- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 172.
٤- القرآن الكريم سورة البقرة الآيات 58-59.

قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ)[1]. ومما لا شك فيه أن الفترة التي أمضوها في سكنى الأرض المقدسة لم تدم، ولم تكن سكنى مخالفة للقضاء الإلهي، إنما خضعت إلى ملابسات أرضية تعرضنا لذكرها في البحث السابق تحت عنوان (النهايات)؛ أي إن بني إسراءيل سكنوا أثناء فترة التيه في موقع سمي في كتاب العهد القديم (قادش)[2].

ما اقتبسناه من قول للأستاذ الباحث صلاح الدين الكلاس يبين الاختلاف الجغرافي والفارق بين القريتين الوارد ذكرهما في سورتي الأعراف والبقرة. سوف ندلل على صحة التفسير وبيان اختلاف أوجه التشابه وتاريخية كل منها من السياق التوراتي لقصة الخروج، كما وردت كتابياً (۞ثُمَّ رَجَعُوا مِنْ تَجَسُّسِ الأَرْضِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْماً. ۞فَسَارُوا حَتَّى أَتُوا إِلى مُوسَى وَهَارُونَ وَكُلِّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيل إِلى بَرِّيَّةِ فَارَانَ إِلى قَادِشَ...)[3].

من الأمانة والإنصاف، وبما يتوافق مع التنزيل الإلهي في القرآن الكريم، التمييز ما بين أوجه الاختلاف بين ممارسات الخارجين عن الموسوية واعتناقهم لمعبودات وآلهة أخرى محلية وما بين عهود الأنبياء والتقاة من بني اسراءيل، التي برز فيها التوحيد الموسوي (حقبة الأنبياء داود وسليمان)، وما بعدهما من ارتداد نحو الصهيونية والوثنية والانغلاق القبلي والتقوقع على الذات ونبذ الآخر المشوب بالطغيان والفساد والظلم للشعوب الأخرى التي ساكنوها، وما رافق ذلك من حقبة الأنبياء المتأخرين: إشعيا، إرميا، حزقيال، هوشع، دانيال (ما بعد الخروج من بابل ودمار الهيكل الأول، والعودة إلى القدس في حقبة عزرا (الوراق) وصولاً إلى النبي) زكريا ويحيى، ووصولاً للرسول الأعظم عيسى المسيح عليه السلام، القضاء الإلهي الذي قضى على من تواجدوا من بني إسراءيل في فلسطين بدخول الأرض المقدسة، ومن ثم الخروج منها، عقاباً إلهياً على ما ارتكب من محرمات وموبقات وظلم وعصيان بحق الله والآخر والقتل والصلب بحق الأنبياء والمرسلين واتهامهم للقديسة مريم البتول بالمعصية وفعل الزنا من دون وجه حق. هذا القضاء الإلهي ورد صراحةً على لسان الأنبياء المتأخرين، وعلى لسان النبي عيسى بن مريم، وفي القرآن الكريم. وقضى هذا الأمر الإلهي بانتشارهم في الأرض (الدنيا) (العالم) من أقصاه إلى أقصاه. وجاء

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 21.
٢- صلاح الدين الكلاس - القصص الحق - موسى (ﷺ) ص 369-370، 372 بتصرف.
٣- العهد القديم سفر العدد 13: 25-26.

في سياق الآيات من سورة الإسراء ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ۞ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۞﴾[1].

الانتقام الإلهي في هذه الآية يعطي مثلاً بفرعون وعمله واضطهاده وقتله ذكورهم، وفي ذلك استفزاز لهم المعني به (الإفناء) والحرمان من حق الحياة. ومن هنا يأتي أيضاً معنى الأرض في الآية الكريمة، إذ ليس معناه الاستفزاز من أرض مصر أو أرض فلسطين، بل هو محاولة إفناء من الحياة على وجه الأرض كلها، لذلك كان الله يضرب بما فعله فرعون مثلاً لما فعلوه أيضاً بالآخرين بمحاولة ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ (...لإِفْنَائِهِمْ وَإِبَادَتِهِمْ)[2]، كما ورد في النص التوراتي، وفي قوله تعالى ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي وعد نجمعكم فيه من شتى بقاع الأرض ثانية، (لفيفاً) منَ مختلف الألوان والألسن والثقافات، لتشهدوا انتهاء دعواكم وطغيانكم، كما فعلنا بفرعون عندما ظلم الناس بمثل ظلمكم وطغيانكم ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[3].

وتبرز هنا حقيقة تاريخية مهمة: خروج العدد القليل منهم مع موسى وبقاء معظمهم في مصر وشمال أفريقيا. ومن هناك عبروا عبر المضيق إلى أسبانيا وأوروبا، بينما عبر الآخرون منهم إلى بلاد فارس وبلاد الخزر وأوروبا الشرقية، فنشروا الديانة هناك بين شعوب مختلفة لا علاقة لها ببني إسرائيل، والسامية عرقياً. والبيان القرآني واضحٌ فيما يقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[4]

في هذه الآية تأكيد إلهي ببقاء معظمهم في دلتا النيل، كما أسلفنا. إن الوصف القرآني بفسوق معظمهم، كما ورد في سورتي الأعراف والبقرة، يماثل

١- القرآن الكريم سورة الإسراء الآيات 103-104.
٢- العهد القديم سفر أستير 9: 24.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآية 24.
٤- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 137.

فسوق إبليس وعصيانه أمر ربه (..إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)[1].

وقولهم للرسول عيسى المسيح إنه ابن زنى، وإنهم أبناء إبراهيم، حيث يخاطبهم عليه السلام في إنجيل يوحنا، عندما قال له اليهود: (...«إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنىً. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: لَوْ كَانَ اللَّهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ)[2]

قد يبدو للبعض أن التطرق لتلك القصة القديمة (الخروج من مصر)، وغيرها من النقاط التي يتطرق إليها هذا البحث، لن يغير في الواقع والنتائج على الأرض، حيث منطق القوة والهيمنة وعالم القطب الواحد والشيطان الأكبر وحدهما يقرران نتائج الصراع، ويضعان النهاية للرواية المختلف عليها في هذا العصر القائم على المصالح المادية والأطماع الاستعمارية. ربما يكون هذا القول صحيحاً من وجهة نظر البعض، لكن الواقع والحقائق والمنطق يفيد بعكس ذلك تماماً. إن إخلاء الساحة الدولية عربياً، مسيحياً وإسلامياً، للطرف الصهيوني ليسيطر عليها، وليغير في حقيقة الرواية التوراتية موظفاً لصالحه ما جاء فيها، هو وحده من أنتج هذا الواقع المرير، وخلق عبر السيطرة على الساحة الأوروبية صهيونياً، وبغياب عربي وإسلامي شبه تام، أسباباً سياسية وثقافية وربوية دفعت بالغرب وساسته وبعض مثقفيه إلى تبني الادّعاءات التوراتية والتلمودية، وربطها اقتصادياً وعسكرياً بالمصالح الربوية الغربية، فمنذ قرون عديدة خلت عملت الحركة الصهيونية بحرية تامة على تسويق روايتها المشوهة، بما أنها تسيطر إعلامياً واقتصادياً وسياسياً على مفاصل الحياة الأوروبية ومراكز صنع القرار داخل المنظومة الغربية ذات الطموحات الاستعمارية والثقافات الاستعلائية العنصرية.

اعتبر الغرب بنتيجتها هذه الرواية مصدراً لجذور الثقافة والحضارة الغربية التي توافقت مع دعوات الاستعلاء والاستيطان والسيطرة والإبادة، التي تضمنتها وسوقتها ضمن (الكتاب المقدس) بالرواية العبرية!

١- القرآن الكريم سورة الكهف الآية 50.

٢- العهد الجديد إنجيل يوحنا 8: 41-44.

هذه النصوص المحرَّفة للكتاب المقدس الذي يجري عليه الصراع بين الشرق والغرب، هي الثقافة التلمودية التي أفرزت (معسكر دول الشر)، وما سماه الرئيس الأمريكي جورج بوش (محور الشر) (الدول المارقة) في مواجهة التحالف الدولي الديمقراطي الحر الذي ارتكب ويرتكب مختلف الجرائم بحق الشعوب المستضعفة غير التلمودية، في كلٍ من فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان والسودان والصومال، وقريباً ستضم أمريكا باكستان أيضاً إلى قائمة الدول الإرهابية. ويلاحظ القارئ الكريم أنها كلها دول عربية وإسلامية!

ألم يوصلنا - عرباً ومسلمين - تخاذلنا و (اعتدالنا) وغباء الكثير من ساستنا إلى التطاول على شعوبنا واستباحة معتقداتنا ومقدساتنا وثقافتنا وحضارتنا، من خلال تبعيتنا ورضوخنا لإملاءات الطاغية بوش إلينا لحضور مؤتمر (أنابوليس): المؤتمر الذي أباح إبادة غزة والمقاومة، والذي أُعلِن فيه وبوقاحة وعنصرية (يهودية الدولة) على الأرض الفلسطينية العربية.

ألم يقبل الكثير من القادة العرب والمسلمين سياسة الركوع والخضوع (والتهميش الذاتي)، والقبول الطوعي لمفاهيم صهيونية مغلّفة برداء السلام والتطبيع السري والعلني؟!

للدلالة والبرهان على أن خروج (أصحاب موسى) إنما تم بخروج عدد قليل لم يتعدى عدة آلاف، مع بقاء العدد الأكبر منهم في دلتا النيل وشمال أفريقيا، نقرأ في سفر إرميا: (۞اَلْكَلِمَةُ الَّتِي صَارَتْ إِلَى إِرْمِيَا مِنْ جِهَةِ كُلِّ الْيَهُودِ السَّاكِنِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ السَّاكِنِينَ فِي مَجْدَلَ وَفِي تَحْفَنِيسَ وَفِي نُوفَ وَفِي أَرْضِ فَتْرُوسَ: ۞هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ كُلَّ الشَّرِّ الَّذِي جَلَبْتُهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ وَعَلَى كُلِّ مُدُنِ يَهُوذَا فَهَا هِيَ خَرِبَةٌ هَذَا الْيَوْمَ وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ ۞مِنْ أَجْلِ شَرِّهِمِ الَّذِي فَعَلُوهُ لِيُغِيظُونِي إِذْ ذَهَبُوا لِيُبَخِّرُوا وَيَعْبُدُوا آلِهَةً أُخْرَى لَمْ يَعْرِفُوهَا هُمْ وَلاَ أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ)[1]. وإرميا أيضاً (لإِغَاظَتِي بِأَعْمَالِ أَيَادِيكُمْ إِذْ تُبَخِّرُونَ لِآلِهَةٍ أُخْرَى فِي أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي أَتَيْتُمْ إِلَيْهَا لِتَتَغَرَّبُوا فِيهَا لِكَيْ تَنْقَرِضُوا وَتَصِيرُوا لَعْنَةً وَعَاراً بَيْنَ كُلِّ أُمَمِ الأَرْضِ)[2].

إرميا من الأنبياء المتأخرين. ظهر في حقبة الجلاء إلى بابل. يحاول بخطابه رد بني إسراءيل العاصين والعابدين لآلهة أخرى إلى عبادة الإله الواحد إله موسى.

١- العهد القديم سفر إرميا 44: 1-3.

٢- العهد القديم سفر إرميا 44: 8.

يبدو هذا القول صحيحاً لاهوتياً، ولكن أين يكون المنطق هنا تاريخياً وجغرافياً؟ إنه وصفٌ درامي أسطوري يحاول أن يكون لاهوتياً (...فَهَا هِيَ خَرِبَةٌ هَذَا الْيَوْمَ وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ)[1].

التعبير هنا أسطوري لاهوتي خيالي. إن إرميا يرى القدس وجميع المدن الأخرى خربة خالية من السكان، فينسب ذلك للفعل الإلهي. وبالواقع هي ليست خربة ولا خالية من السكان، بل هي مسكونة وعامرة بالناس، لكنه لا يرى فيهم سكاناً يهوداً ولا حتى بشراً. إنها تبريرات تجافي حقيقة التاريخ والأحداث التاريخية ومنطق الأمور، لتضع القارئ في هالة من الخيال الواسع لنص درامي إلهي لاهوتي بعيد عن المنطق والواقع على الأرض، هذا ليس تاريخاً. وفي محاولة لإعادة ربط يهود يهوذا بيهود مصر وبالقدس والهيكل، يتم التلويح بالانقراض والفناء والعار واللعنة. تستمر الدعوة القبلية والانعزالية والعنصرية داخل النص، فلن يعتبر يهود مصر وفارس وبابل وأرض كوش (الحبشة) مؤمنين وموحدين إلا إذا استوطنوا فلسطين وحصروا عبادتهم لله داخل الهيكل!

- هل كان بالإمكان لليهود في مصر والحبشة، أو في الاسكندرية وجزيرة الفيلة واليمن وجبال البربر المغربية، والمفترض أنهم اتبعوا ديانة يهودية هدائية، أن يكونوا جميعاً من بني إسراءيل؟ أو ألا تتم عبادتهم وصدق إيمانهم إلا إذا تركوا أوطانهم وثقافاتهم التي هم عليها ليهاجروا إلى فلسطين كمستوطنين غرباء، ليقال لهم حقاً لقد أصبحتم الآن يهوداً؟

مع ظهور الديانة المسيحية واعتناق الإيمان المسيحي لم يحدث أي تغير ديموغرافي في فلسطين، لكن ما حصل فعلاً هو أن بعض اليهود وكثيراً من الوثنيين أصبحوا مسيحيين. لم يغير ذلك من كونهم سكان فلسطين بتغير انتمائهم الديني؛ لم تتغير أعراقهم بتغير معتقدهم، لكن بقي الجليلي جليلياً والسامري سامرياً والكنعاني كنعانياً، كلهم من سكان فلسطين؛ بالمقابل لم يصبح الرومان كنعانيين أو فلسطينيين أو إسرائيليين على الرغم من اعتناقهم المسيحية أو اليهودية أو من بقي منهم على وثنيته، اعتبروا في النهاية رومان غزاة وأجانب مصيرهم الرحيل!

١- العهد القديم سفر إرميا 44: 2.

نلاحظ ابتداءً من سفر إشعيا وما بعده تبني لمفردة (الرب) والإله، وتختفي مفردة (يهوه) داخل الخطاب في تدرج داخل الرواية نحو الاعتناق للإله الواحد، تشابهاً مع التطور الأخناتوني القديم التدريجي نحو مفهوم الإله الواحد، وبقاء الغموض مسيطراً على مفهوم الموت والبعث والقيامة، الأمر الذي يشير إلى تبني التفكير الأخناتوني. ونحن نعلم أن لأخناتون أسبابه بالإبقاء على النمط الشعبي لمحبة أوزيريس إله الأموات، ومحاولة التدرج وفق المعطيات اللاحقة والمستجدة.

لا ذكر للبعث والقيامة والعالم الآخر داخل الرواية الكتابية، باستثناء إشارة غامضة وخجولة وردت في سفر دانيال الذي تهيمن عليه الثقافة الفارسية، والذي يسجل تطابق كبير بينه وبين سفر الرؤيا، حيث تبرز فيه بوضوح الثقافات البابلية والفارسية والرومانية والإغريقية.

حملت قصة الخروج معها الكثير من أوجه التشابه والنمطية بين طرائق العبادة الآتونية والموسوية، وبالمقارنة بين أسفار العهد القديم. ومن سفر التكوين حتى سفر إرميا يظهر بوضوح وجود خطابين لشعبين مختلفين وإلهين غير متشابهين. وكما جاءت ثورة أخناتون الإصلاحية الشابة بمفاهيم جديدة إيمانية، حدث ذلك أيضاً من خلال الأسفار المضافة للتوراة، كما قلنا ابتداءً من سفر إشعيا.

ففي الخطاب القديم ورد في مخاطبة فرعون لموسى وهارون: (۞فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ». ۞فَقَالاَ: إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ الْتَقَانَا...)[1]. وفي سفر التثنية إقرار ضمني لآلهة ظواهر الطبيعة. وهذا ما أخذه العبرانيون من الآشوريين والفرس والرومان أيضاً: (وَلِئَلا تَرْفَعَ عَيْنَيْكَ إِلى السَّمَاءِ وَتَنْظُرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ كُل جُنْدِ السَّمَاءِ التِي قَسَمَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ لِجَمِيعِ الشُّعُوبِ التِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ فَتَغْتَرَّ وَتَسْجُدَ لهَا وَتَعْبُدَهَا)[2]، ومن سفر الملوك أيضاً: (۞فَاسْتَشَارَ الْمَلِكُ وَعَمِلَ عِجْلَيْ ذَهَبٍ، وَقَالَ لَهُمْ: [كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا

١- العهد القديم سفر الخروج 5: 2-3.
٢- العهد القديم سفر التثنية 4: 19.

آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ]. ۞وَوَضَعَ وَاحِداً فِي بَيْتِ إِيلَ وَجَعَلَ الآخَرَ فِي دَانَ)[1].

ونقلاً عن العالم أرمان، حيث يصف مشاهدات العالم والمؤرخ التاريخي الإغريقي هيرودس، الملقب بـ (أبي التاريخ)، يقول: (يروي هيرودس الذي زار مصر قرابة عام 450ق.م في قصة رحلته واقعة تصلح فعلاً لتمييز شعب مصر، وتنطوي على محاكاة مذهلة لبعض الخصائص المعروفة عن اليهودية المتأخرة. إنهم من جميع الوجوه أكثر ورعاً وتقوى من سائر البشر الذين تميزهم عنهم أيضاً عادات أخرى: كانوا يمارسون الختان الذي كانوا هم أول من أخذ به لدواعي النظافة، ثم إنهم يشمئزون من الخنازير، وهذا يرجع بالتأكيد إلى ون (ست) الملتبس شكل خنزير أسود، وقد جرح (حوريس)؛ وأخيراً وعلى الأخص تراهم يحلبون الأبقار التي لا يأكلونها البتة ولا يضحونها لأنهم لو فعلوا لأهانوا إيزيس التي لها قرون بقرة، ولهذا يأبى الرجل أو المرأة من المصريين تقبيل يوناني أو استعمال سكينه أو فرشاته أو قدوره، ويأبون أكل لحم بقرة طاهرة ذبحت بسكين يونانية. وكانوا في كبريائهم الضيقة ينظرون من علٍ إلى الشعوب الأخرى التي كانت نجسة وأكثر ابتعاداً منهم عن (الآلهة) - ويتابع التساؤل - وطبيعي أننا ننسى قطعاً هنا المقارنة المستمدة من حياة الهندوسيين. ولنتساءل، بالمناسبة، من أوحى للشاعر اليهودي هنري هايتي في القرن التاسع عشر الميلادي أن يشتكي من دينه بقوله إنه «تلك الآفة الوافدة من وادي النيل، تلك العقيدة الموبوءة لمصر القديمة»)[2].

هذه الشهادة للمؤرخ الإغريقي أشارت وعن غير قصد إلى الانتحال التوراتي الوارد في سفر التكوين: (۞وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. ۞...يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ ۞فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ... ... ۞وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي»)[3]. فإبراهيم ينتمي إلى الآراميين الذين سكنوا وادي الفرات وشرق البحر المتوسط، وعادة الختان لم تكن معروفة في تلك البلاد. وكان المصريون يختنون منذ مئات السنين قبل ولادة إبراهيم. وقد كشفت المومياءات المحنطة

١- العهد القديم سفر الملوك الأول 12: 28-29.
٢- أرمان: دين مصر (الديانة المصرية)، ص 181.
٣- العهد القديم سفر التكوين 17: 9-14.

والمكتشفة بأن الفراعنة كانوا يتبعون عادة الختان، وأن بني إسراءيل في مصر قد اقتبسوا هذه العادات عن المصريين، أو أن إبراهيم الخليل تعلمها وطبقها على أبنائه بعد زيارته إلى مصر، التي كان ينتقل إليها من بادية الشام والفرات والحجاز وفلسطين؛ هذه البلاد التي كان لإبراهيم فيها تجارة وقيادة وعلاقات تجارية وسياسية، وينتقل ما بينها داخل الوطن والانتماء الواحد المشرقي.

عمدت الجماعة العبرانية إلى الإبقاء على ديانتها كديانة محلية خاصة بها ولفترات طويلة، وتبنت دعوات عنصرية وعرقية ربطت ديانتها فيها تحت مسمى (الشعب المقدس). هذا المسمى بنى عليه شعب الرب تبنّيه لدعوة (أرض الميعاد)، فوضعت نفسها في مواجهة شعوب المنطقة برمتها، وأصبحت السمة اليهودية التوحيدية هي سمة وراثية غير هدائية. تطلّب هذا الاعتناق اعتبار الأم غير اليهودية ولادة الأجنبية، واعتبار نسلها ووليدها خارج الجماعة اليهودية. قد يكون هذا الاعتقاد العرقي هو ما دفع بالأحبار والكهنة والكتبة للتنكر لأسنات المصرية زوجة الصديق يوسف وابنتها التي تم تجاهلها، وهذا ما يجعل من أبناء وبنات يوسف من المصريين أصلاً خارج الجماعة العبرية اليهودية.

ربطت الصهيونية المبكرة مصالحها بمصالح الحكام والملوك وبكهنة الطبقة الإقطاعية الحاكمة في أوروبا، ووفرت لها المكاسب والمراباة على حساب شعوبها التي كانت ترزح تحت سياط طبقات الأشراف والكهان الإقطاعية، فربطت مصالحها معها وسيطرت من خلال النفوذ والمال على الكنائس الغربية معظمها، وتم تسويق عبارة السيد المسيح (...مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ)[1] بما يتوافق ومصالح الفئة الكهنوتية اليهودية في اعتماد العهدين القديم والجديد داخل الكتاب المقدس، وأدى ذلك لهيمنة ما هو قديم وفي طريقه للفناء بطغيانه على العهد الجديد وأتباعه ومعتنقيه. ويعبر عن ذلك الباحث اللاهوتي نيل سلبرمان في كتابه (البحث عن إله ووطن) بالقول: (بينت موجة الاستكشاف التي أعقبت غزو نابليون لفلسطين بوضوح مدى ضخامة العمل الذي ينتظر الإنجاز هناك، إذا كانت أورشليم السماوية ستتجلى فعلاً خلال سني الحياة الراهنة).

وجاء كلام أول المستكشفين ليؤكد أدق تفاصيل حالة الفقر والاضطهاد والجهل المطبق التي يعاني منها أهل البلاد، فمن تجب هدايتهم لم يكونوا المسلمين (المتعصبين) واليهود (المتشددين) فقط، بل المسيحيين المحليين، أسرى التعاليم

١- العهد الجديد إنجيل متى 5: 17.

الدوغمائية للكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية. هكذا توضح أن الاستعادة التبشيرية للأرض المقدسة كانت مهمة تتعذر مراوغتها أو الهروب منها، على الرغم من أن أنظار البعثات التبشيرية الإنكليزية كانت تنجذب أكثر فأكثر إلى الحاجات الروحية لكل من الهند وأفريقيا والشرق، حيث طريق إمبراطورية أمتها. وقبل أن يمضي وقت طويل بادرت نظيرتها الدينية في أمريكا إلى قبول التحدي، إذ كانت الجهات الأولى التي أوفدت إليها بعثة مقدسة هي أورشليم الأرضية.

كان أوائل المستوطنين البروريانيين في نيو إنغلاند الذين قطعوا أشجار الغابات الكثيفة واستصلحوا السفوح الصخرية للتلال لتحويلها إلى حقول أو قرى أو بلدات، يعتبرون أنفسهم الخلفاء الحقيقيين لبني إسراءيل، والعالم القديم كان (مصرهم)، في حين كانت البراري الأمريكية الواسعة (أرضهم الموعودة) ولاهوتهم.

كما تمت صياغة أكبر المواعظ الملتهبة لكل من (إنكريز وكورتون ماثر وجون ونثروب ونتائيل وارد)، التي لم تتضمن إلا القليل من الرحمة والشفقة الموجودين في (العهد الجديد): فقد رأوا أن قصة الخروج من مصر والضياع والتيه الذي دام أربعين عاماً، وإلحاق الهزيمة بالكنعانيين، شديد القرب من الوقائع التي كانوا يعيشون في ظلها. والمدن التي أسسوها حملت أسماء (كتابية) مثل: بيت إيل، وحبرون، وكنعان الجديدة، وأريحا، وبيت لحم، وصهيون؛ أما الأسماء التي حملوها هم أورثوها لأبنائهم، مثل: يشوع، وموسى، وجونثيان، وأبييغل، وربكا (رفقة)، وآحاب، وسارة، وراحيل)[1].

بعدما تقدم من قول لسلبرمان، هل يبقى أي شك أو تردد لدى أصحاب نهج التفاوض العبثي والاعتدال والواقعية والانهزام من أن الغرب التوراتي التلمودي والرأسمالي الجشع قد خلق دولة إسرائيل وفق الرؤية اللاهوتية الأيديولوجية والعنصرية التي ينتهجها مبدأً وممارسةً في تعامله مع غير اليهود من العرب مسلمين ومسيحيين؟

العقيدة التوراتية الصهيونية أصبحت موروثة ومتجذرة في أعماق النفسية الغربية الأصولية، وهي مستقاة من صلب الرواية العبرية (للكتاب المقدس)، وتشكل تراثاً وثقافة عنصرية واستعلائية واستيطانية وإباحية تعتبر بمثابة الأيديولوجيا والسياسة المتبناة لكثير من قادة الغرب وساسته ومفكريه ومستشرقيه، ومن الذين ورثوا هذه المعتقدات جيلاً بعد جيل إلا من رحم ربي من الشرفاء والأخلاقيين من

١- نيل سلبرمان - بحثاً عن إله ووطن، ص 60-61.

أصحاب الضمائر الحية لهذه الجماعات التي تضامنت واستنكرت من خلال حملات التضامن والاستنكار التي نظمتها منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان الغربية لمساندة حركات التحرر الوطني والشعوب المستضعفة والرازحة تحت الاحتلال، ورفض الممارسات اللاأخلاقية لحكوماتها وساستها المتحالفة مع الصهيونية وأنظمة القمع والفصل العنصرية، ومنهم كثير من قادة وسياسيين ومفكرين شرفاء وأصحاب ضمائر حية وإنسانية عبروا عن غضبهم ومعارضتهم لتلك الممارسات العنصرية والفاشية.

أصبح واضحاً أن اختلاق أوروبا الغربية للولايات المتحدة الأمريكية كتابياً يوازي خلق دولة إسرائيل التوراتية، وأن إبادة الهنود الحمر في قارة أمريكا يوازي إبادة الكنعانيين داخل الرواية العبرية، فنظام (القطب الواحد) والقوة الطاغية الاستيطانية يتفق ويتوازى مع خلق إسراءيل الجديدة وتفوقها العسكري المطلق، ونقاء شعب الرب (بيهودية الدولة). ومن يراهن على تغيير في سياسة العدوان والهيمنة الأمريكية نتيجةً لتغيير في قيادتها ستثبت له الأيام خطأ اعتقاده وخيبة ظنه، فالقرآن الكريم واضح في هذا الشأن ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

هذا الفريق المُحرّف لكلام الله بعد ما عقله بالبرهان واليقين والعلم، هو نفسه وورثته اليوم المتحكمين بالقرار السياسي والأصولي للإرادة الأمريكية المتصهينة ومؤسساتها المختلفة، والمؤسسات الفاسدة بغزواتها ونزواتها الاستكبارية الإرهابية وإفسادها للعالم. نشاهد اليوم هذا الإرهابي «الرئيس بوش» المتربع على عرش الإمبراطورية الأمريكية في خبر عاجل على فضائية الجزيرة وهو يتلقى الإهانة والضربات على رأسه بحذاء صحفي عراقي حرّ في مؤتمر صحفي في بغداد، التي دخل إليها بوش متسللاً مذعوراً محاطاً بأتباعه وعملائه الذين قدموا على ظهور دباباته مهللين له ولاحتلاله الهمجي لوطنهم وتدميره له وقتله لعلمائه ومثقفيه. هذا الحذاء العراقي الذي ينهي ولاية بوش وإرهابه يعبر عن إرادة الأمة بإخراج المحتل مدحوراً.

إنَّ نقض العهود والمواثيق ثقافة وعقيدة استقاها الغرب وساسته من نص الرواية التوراتية ونصوصها العدائية.

١- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 75.

جاء في العهد القديم: (فَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيل لِذَلِكَ لا تُدْخِلانِ هَذِهِ الجَمَاعَةَ إِلى الأَرْضِ التِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»)[1]. شكلت هذه العبارة المقدمة الأولى لتبرير اضطهاد موسى والانقلاب على ميثاقه، ثم قتله الذي كان يشعر به، حيث خاطبهم بقوله: (۞خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَاةِ هَذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِداً عَلَيْكُمْ. ۞لأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمُ الصُّلبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمُ اليَوْمَ قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ فَكَمْ بِالحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي!)[2].

المشاعر والأحاسيس التي انتابت موسى، وهو النبي كليم الله، تم التخطيط لها وبرمجتها في تغيير لكلام الله عن مواضعه (أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي) (لا تُدْخِلانِ هَذِهِ الجَمَاعَةَ)؛ هنا خُطِطَ مسبقاً لتقديم الأعذار وطمس ما جاء حقيقةً داخل الرواية التوراتية: (۞وَصَعِدَ مُوسَى مِنْ عَرَبَاتِ مُوآبَ إِلى جَبَلِ نَبُو إِلى رَأْسِ الفِسْجَةِ الذِي قُبَالَةَ أَرِيحَا... ... ... ۞وَقَال لهُ الرَّبُّ: «هَذِهِ هِيَ الأَرْضُ التِي أَقْسَمْتُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بِعَيْنَيْكَ وَلكِنَّكَ إِلى هُنَاكَ لا تَعْبُرُ». ۞فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. ۞وَدَفَنَهُ فِي الجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ مُقَابِل بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلى هَذَا اليَوْمِ)[3]

صعد موسى الجبل ولم يعد، فأراه الرب الأرض كلها (وهنا بيت القصيد من القصة)، ثم أماته ودفنه هناك! والتساؤل هنا: من هو الذي كلمه الله وأخبره بعد موت موسى، إذا كان موسى قد صعد الجبل وحيداً ومات هناك بمفرده؟

هل كان يوشع مع موسى يرافقه بسيفه، وأصعده إلى هناك وعاد وحيداً ليخبر القوم بموته؟

الإله العادل الرحيم لا يدعو للقتل والحرق والإبادة لخلقه أطفالاً ونساءً وشيوخاً وبهائم، كما ادّعت الرواية التوراتية، لكن هذه الخرافة المدّعاة متواجدة

١- العهد القديم سفر العدد 20: 12.
٢- العهد القديم سفر التثنية 31: 26-27.
٣- العهد القديم سفر التثنية 34: 1-6.

فقط داخل العقلية اليهودية العبرية الصهيونية المسكونة بإرادة قابيل بقتل أخيه هابيل ظلماً وحسداً وغدراً.

على الذين يتخذون من الكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والجديد منهاجاً وعقيدة أن يتدارسوا ما جاء في رسالة النبي العظيم عيسى (**صلى الله عليه وسلم**)، وما يتضمنه العهد الجديد من سلام ومحبة وأممية وفضيلة وأخلاق إيمانية تتناقض كلياً ودعاوى القصة العبرانية المسيسة، كما هو في العهد الجديد (❁كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلَهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ وَالْفَضِيلَةِ، ❁اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَدْ وَهَبَ لَنَا الْمَوَاعِيدَ الْعُظْمَى وَالثَّمِينَةَ لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ، هَارِبِينَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي فِي الْعَالَمِ بِالشَّهْوَةِ. ❁وَلِهَذَا عَيْنِهِ وَأَنْتُمْ بَاذِلُونَ كُلَّ اجْتِهَادٍ قَدِّمُوا فِي إِيمَانِكُمْ فَضِيلَةً، وَفِي الْفَضِيلَةِ مَعْرِفَةً، ❁وَفِي الْمَعْرِفَةِ تَعَفُّفاً، وَفِي التَّعَفُّفِ صَبْراً، وَفِي الصَّبْرِ تَقْوَى، ❁وَفِي التَّقْوَى مَوَدَّةً أَخَوِيَّةً، وَفِي الْمَوَدَّةِ الأَخَوِيَّةِ مَحَبَّةً)[1]

١- العهد الجديد رسالة بطرس الرسول الثانية 1: 3-7.

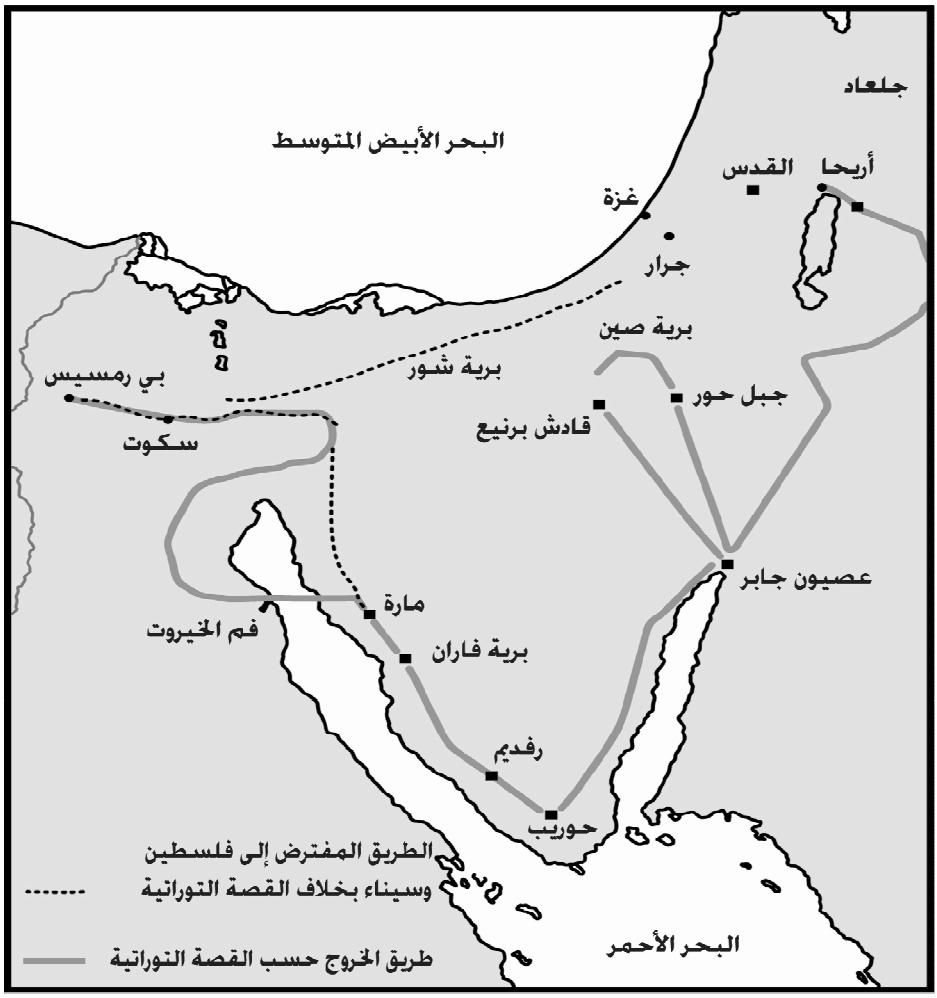

الشكل (2)

هذه الفضائل والقيم الإنسانية العظيمة أرسى دعائمها النبي الكريم عيسى عليه السلام، والتي جاءت مناقضةً لما جاء به أحبار وكهنة اليهود الساعين إلى تشكيل المملكة الأرضية، والتي تتعارض مع مملكة السماء ذات الثواب والعقاب والقيامة والحياة الأبدية التي تنفيها رواية العهد القديم، والتي بشر بها العهد القديم نفسه بالنبي المبشر بقدوم المخلص الذي يرد قلوب الأبناء والآباء ويجمعهم على الطريق الإلهي القويم. كان أولئك الأحبار والكهنة ورجال الهيكل أول المتنكرين لهذه البشارة المسيحية وأول من حاربها. ويقول العالم إسلين:

(ستبنى جميع الآمال اللاحقة بقدوم المسيح المنتظر. وفي أواخر السبي البابلي على وجه التحديد شرع اليهود يعقدون الرجاء على فكرة أن النبي الذي قتلوه غيلة وبسفالة لا تضارعها سفالة سيبعث من بين الأموات وسيقود شعبه التائب، وربما

شعوباً أخرى غيره إلى مملكة الهناء الأبدي الذي سيقدر في زمن لاحق لمؤسس آخر للدين)[1].

وجاء في القرآن الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2].

قبل ختام هذا الفصل وقصة الخروج لا بد لي من لفت نظر القارئ الكريم إلى الملاحظات المهمة التالية:

1- أورد العهد القديم قصة غرق الفرعون، واختتمها ضمن النص التوراتي التالي: (۞فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ. ۞وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشُوا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. ۞فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتاً عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. ۞وَرَأَى إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ. فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى)[3].

- نلاحظ من خلال النص التوراتي أن بني إسراءيل قد شاهدوا بأنفسهم غرق الفرعون وجنوده، كما شاهدوهم أيضاً جثثاً على شاطئ البحر. وكان ذلك جنوب بحيرة المنزلة المتداخلة مياهها مع مياه الفرع البلوظي أحد فروع نهر النيل في الدلتا، والذي يصب في البحر الأبيض المتوسط وتخلط مياهه بمياه البحر).

وهناك أمعنوا النظر وأنشدوا نشيداً أيضاً (...«رَنِّمُوا لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ! الْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي الْبَحْرِ!»)[4]. وهم حتماً، ومعهم النبي موسى وهارون أخيه (عليهما السلام) يعرفون تماماً مضطهدهم الفرعون، لم تتطرق الرواية الكتابية العبرية إلى جثة الفرعون، علماً أن الخارجين يعلمون تماماً أن المصريين يحنطون جثث موتاهم، لا سيما الملوك

١- إسلين : موسى وأهميته في تاريخ الدين الإسرائيلي اليهودي، ط 1922.
٢- القرآن الكريم سورة الشورى الآية 13.
٣- العهد القديم سفر الخروج 14: 28-31.
٤- العهد القديم سفر الخروج 15: 21.

والأمراء والقادة والكهنة، وأخبار نجاة جثة الفرعون لا بد أن تصل إلى مسامع بني إسراءيل وموسى (صلى الله علبه وسلم)، فلماذا تم التنكر والتجاهل لهذا الحدث المهم داخل النص التوراتي؟

هل كان التطرق لهذا الخبر على أهميته سيطيح بالرواية التوراتية لقصة الخروج وعبور البحر الأحمر برمتها، حيث يجب التطرق هنا إلى مكان العبور الصحيح الذي يخالف الانتحال التوراتي بعبور البحر الأحمر؟

2- أورد القرآن الكريم قصة غرق فرعون الخروج، وختمها ضمن النص التالي: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ۞﴾[1].

بما أن التوراة التي بين أيدينا يفترض بها أن تكون وحياً وكلمة الله، كان من المفترض بها أيضاً ألا تتناقض أو تغفل هذه الحادثة المهمة: نجاة فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية. ومن المعروف أن بني إسراءيل قد عاصروا الحدث، وما بعد الحدث، وبقي من بقي منهم في مصر.

يأتي القرآن الكريم الموحى به إلهياً إلى النبي محمد (صلى الله علبه وسلم، وهو العربي الأمي الذي لم يكن ليعلم أن الفرعون قد نجا ببدنه، وأنه قد حنط، وأن جثته ستكتشف. وقد اكتشفت جثة فرعون الخروج عام 1898م؛ أي بعد أكثر من ألف وثلاثمئة عام من تنزيل القرآن الكريم الذي ذكر نجاة الفرعون ببدنه ليكون للناس آية من بعده، كما هو الحال اليوم. هذا الاكتشاف والتدقيق العلمي استخدمت فيه أحدث الأجهزة والمخابر المتطورة العلمية الدقيقة ومبادئ العلوم الأثرية والحواسيب الحديثة في فرنسا أثناء زيارة مومياء هذا الفرعون: رمسيس الثاني، إلى باريس. وقد استقبلت المومياء الملكية بمراسيم رئاسية من قبل الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران. وتم الكشف والوصف الطبي الشرعي لذراعي الفرعون وما شابها من كسور نتيجة الارتطام بالماء وهو يمتطي جواده ويحمل سيفه وترسه، وكيف أن ذراعه المكسورة قد عادت لوضعها

١- القرآن الكريم سورة يونس الآيات 90-92.

الطبيعي بعد فك الأربطة عنها. ذكر القرآن الكريم قصة الفرعون ونجاة جثته المحنطة لتكون للناس آية في عصرنا، هذا بعد أكثر من ألفي عام من تجاهل الرواية التوراتية التي بين أيدينا لهذا الحدث وهذه الآية!

أعلن العالم والبروفسور الفرنسي موريس بوكاي إسلامه بعد معاينته لمومياء الفرعون ومراجعته للكتاب المقدس والقرآن معاً. وبعد اطّلاعه على الآية القرآنية المذكورة، وقف ليعلن أن هذا الكتاب الذي تنزل على الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم يتوافق تماماً مع كل العلوم والمكتشفات العلمية الحديثة، وهو مطابق لها تماماً، ذلك في كتابه الشهير (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، الذي استغرق في تأليفه عشر سنوات، ونفذت في أوروبا وأمريكا عشرات الآلاف من نسخه.

- ويقول في كتابه: (لقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بمعطيات العلم طوال الزمن موضع تفكير الإنسان. وتوافق الكتب والعلم كان عنصراً ضرورياً لأصالة النصوص المقدسة. وقد لوحظ مع تطور المعرفة وجود اختلافات بين نص التوراة والعلم، فتقرر عدم المقابلة بينهما. ويجب الاعتراف أنه بهذه الطريقة برز في أيامنا وضع خطير، هو تصادم العلماء وشرح التوراة، لأنه لا يمكن القبول بالواقع بأن يكون الوحي الإلهي متكلماً عن شيء غير صحيح، ولم يكن من بد من التوفيق المنطقي وإبطال كل مقطع من الكتاب التوراتي يتحدث عن أمر غير مقبول علمياً). ويقول الكاتب وليد مدفعي عن الكتاب: (أعاد الكتاب تقييم التوراة والإنجيل والقرآن والحديث الشريف وبحث عن تواريخ تدوينها، وعن مدى تدخل مدونيها على اختلاف النسخ، واختلاف كل الآراء، وكشف عن التزوير الذي قام به اليهود في التوراة لصالحهم، كفكرة سياسية لا كفكرة دينية موسوية، وبين أيضاً سعة الشقة بين الأناجيل، وأوضح مقدار التحريف الذي أدخله بولص في الديانة المسيحية، وأقر بعدم وجود أي تحريف في القرآن)[1].

١- (من التوحيد إلى الأسطورة) وليد مدفعي ص 51-52 نقلاً عن كتاب العالم موريس بوكاي (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) الصادر في باريس.

العالم الفرنسي موريس بوكاي

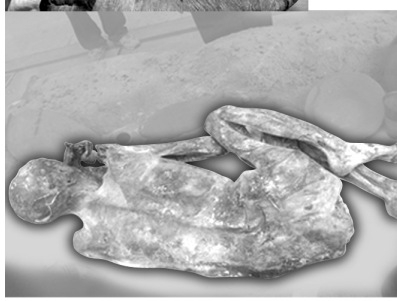

مومياء فرعون الخروج المكتشفة عام 1898م والتي تم فحصها في فرنسا على يد العالم الفرنسي الشهير موريس بوكاي في سبعينيات القرن الماضي في باريس.